مصطفى عبد الرازق

كان أحب شئ إليه المهل ، وأبغض شئ إليه السرع . كان مستأنياً إذا قال ، مستأنياً إذا فكر ، مستأنياً إذا عمل ، مستأنياً إذا سعى . وكان يؤثر بيتين من شعر أبى العلاء فى رثاء أبيه ويكثر إنشادهما ، ولعله كان يفضلهما على شعر أبى العلاء كله ، وهما قوله :

فيا ليت شعرى هل يخفّ وقاره ... إذا صار أحدٌ فى القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروىّ مبادراً ... مع الناس أم يخشى الزحام فيستأنى

ذلك إلى أنه كان وقور العقل والقلب والجسم ، وكنا نعرف منه ذلك وندعبه به ونتندر بوصوله متأخراً فى كل موعد . وكنا إذا ارتبطنا معه بموعد أواجتماع قدرنا دائماً أنه سيصل متأخراً دقائق تكثر أوتقل . ليس لهذا كله مصدر إلا أنه كان مستأنى الطبع لا يحب العجلة فى شئ . وقد كان لهذه الأناة أثر بعيد فى حياته كلها ، فكان أقل الناس تورطاً فى خطأ لفظى أو عملى ؛ لأنه لم يكن يتكلم إلا عن تفكير ، ولم يكن يعمل إلا عن روية . ولم يكن يحكم إلا عن بصيرة .

و يمكن أن نلاحظ أثر هذه الأناة فى صلاته بالناس . فما أعرف أن أحداً شكا منه أو أضمر له شرًّا أو احتفظ له فى نفسه بموجدة أو ضغينة ؛ لأنه كان مكفوف الأذى عن الناس جميعاً ، مبسوط الخير للناس جميعاً . وأكثر ما يسئ بعض الناس إلى بعض حين يعجلون فى الرأى والقول والعمل . ولم يكن يعجل فى شئ من هذا ؛ فلم يكن يسئ إلى أحد . وقد كان الناس يعجلون عليه فيلقونه بالكلمة النابية أحياناً ، ولكنه كان يعرف كيف يستأنى بهم و يحلم عليهم و يردهم إلى الحياء منه بل إلى الحياء من أنفسهم قبل أن يستحوا منه . وفى الطبيعة الانسانية شر كثير ؛ فقد كان بعض الناس يكيدون لهذا الرجل الذى برئت نفسه من الكيد ، ولكنه كان من طهارة القلب وصفاء النفس ونقاء

الضمير بحيث لا يؤذيه كيد الكائدين ، أو قل بحيث لا يبلغه كيد الكائدين . كان يرتفع عن الصغائر كلها ، وأى شئ أصغر من الكيد ! كانت صلاته بالناس كلها صفواً . وكان هذا الصفو يأتى منه أكثر مما يأتى من الناس ؛ وكان هذا الصفو يأتى منه لأنه كان يستأنى بالناس دائماً ولا يعجل عليهم فى شئ .

وأذكر أنه فى ذات عام من الأعوام تعرض لبعض الشر فى منصبه الذى كان يشغله بوزارة العدل ، فلم يعجل ولم يسرف على نفسه ولا على أحد بقول أو عمل ، وإنما ابتسم للمكروه حين أقبل عليه ، وابتسم للمكروه حين أدبر عنه ، ولم يصرفه هذا المكروه لحظة عن حياته النقية الصافية ، وصلاته الأبية الكريمة بالناس .

كان ثروت باشا رئيساً للحكومة ، وكان الخلاف عنيفاً بين الحكومة والوفد ، وكان سعد بعيداً عن مصر فى منفاه فى أقصى الشرق أو فى أقصى الغرب ، لا أذكر ، وكانت أسرة مصطفى عبد الرازق مؤيدة للحكومة مخاصمة للوفد ، ولكن صلات قديمة كانت تصل بين سعد وبين أسرة عبد الرازق ، فلم تستطع الخصومة على عنفها أن تبلغ هذه الصلات فى قلب هذا الصديق الكريم . وقرأ الناس فى الصحف ذات يوم أن مصطفى عبد الرازق مر بدار سعد وترك بطاقته لمناسبة عيد من الأعياد ، فلم ينكر أصدقاء مصطفى من ذلك شيئاً . ولكن أيام العيد تنقضى ويستأنف مصطفى عمله فى وزارة العدل . وإنه لفى ذلك وإذا الوزير يدعوه فيسأله : أفى الحق أنك ذهبت إلى دار سعد ؟ قال مصطفى : نعم . قال الوزير : أتعلم أنك موظف ، وأن الموظفين لا ينبغى أن يسعوا إلى الدار التى تخاصم فيها الحكومة ؟ قال مصطفى : لا أعلم إلا أن بينى وبين سعد صلات مودة قديمة ، وأن أيسر الوفاء لهذا الود يفرض علىّ أن أمر بداره أيام العيد . قال الوزير : فانك منقول إلى أسيوط . فلم يزد مصطفى على أن ابتسم وانصرف .

وكان ثروت باشا غائباً عن القاهرة ، فلما عاد وصل إليه النبأ ، فتقدم إلى وزير العدل فى أن يلغى هذا الأمر السخيف ؛ لأن ثروت باشا كان كمصطفى عبد الرازق يقدر صلات المودة بين الناس ، ويعلم أن لهذه الصلات حقوقاً لا يقصر فيها الرجل الكريم .

وأشهد لقد سمعت ثروت باشا يقول متضاحكا: سامح الله وزير العدل ! يريد أن يعاقب رجلا على مروءته .

وقد مضى مصطفى على هذه السيرة حياته كلها ، لم تعجله السياسة ولم تعجله

المنافع الخاصة ، ولم تعجله الظروف مهما تكن عن رعاية الحقوق كما ينبغى أن ترعى ، وعن الوفاء للناس كما ينبغى أن يكون الوفاء .

كان خلقه يرفعه عن الصغائر حتى ينزله منازل النجوم . وكان خلقه يهبط به إلى حيث حاجات الناس وآلامهم ومصالحهم ذات الخطر وغير ذات الخطر . فلم أر رجلا كان أرفع منه نفساً وأشد منه تواضعاً فى وقت واحد . وهل يكون التواضع إلا لأصحاب النفوس الرفيعة !

إن الذين يألمون لفقد مصطفى من أهله وذوى خاصته ومودته من الأصدقاء الأقربين ومن الذين وصلت بينه وبينهم شؤون الحياة الاجتماعية لقليلون جداً بالقياس إلى هؤلاء الناس الكثيرين الذين لا يعرفهم أحد أو لا يكاد يعرفهم أحد ، والذين كان مصطفى يتلقاهم كما كان يتلقى أرفع الناس قدراً ، ويسعى إليهم كما كان يسعى إلى أرفع الناس قدراً ، ويرفق بهم كما كان يرفق بأقرب الناس إليه وآثرهم عنده ؛ لا يتكلف ذلك ولا يشق على نفسه به ، وإنما يراه شيئاً طبيعيا لا يحتاج إلى جهد أو عناء . كان يصنع ذلك حين كان طالباً فى الأزهر ، يسمر إذا أقبل الليل مع أرفع المصريين مكاناً فى داره ، ويسعى إذا أقبل النهار مع الطلاب من جميع الطبقات ، يسعى بينهم كواحد منهم لا يجدون منه كبراً ولا شيئاً يشبه الكبر . وكان يصنع ذلك بعد أن أصبح عالماً من العلماء وأستاذاً فى مدرسة القضاء . وكان يصنع ذلك طالباً فى أوربا مع رفاقه من المصريين والفرنسيين جميعاً قبل أن تثار الحرب الأولى وبعد أن أثيرت . وكان يصنع ذلك بعد أن عاد من أوربا وقد شغل المناصب المختلفة فى الأزهر ووزارة العدل وفى الجامعة بنوع خاص ، فى الجامعة حيث يسعى الفقر والغنى مصطحبين ، يظهر الغنى نفسه فى كثير من القحة ، ويخفى الفقر نفسه فى كثير من الحياء . فى الجامعة حيث يذهب بعض الطلاب فى السيارات وإن قربت الدار ، وحيث يذهب بعضهم سعياً على الأقدام وإن بعدت الدار . فى الجامعة حيث تؤدى قلة قليلة أجور الدرس عن سعة ، وحيث تشقى كثرة كثيرة بالعجز عن أداء هذه الأجور . فى الجامعة لا يكون الأستاذ الصالح أستاذاً صالحاً لأنه يلقى الدرس على وجهه ويعلم الشباب كما ينبغى أن يتعلموا فحسب ، وإنما يكون الأستاذ الصالح أستاذاً صالحاً حين يتفقد شؤون هؤلاء الشباب فى أناة وخفة ورفق ، وحين يعلم من خفى أمرهم ما يعلم ، فيصلحه بالحب والعطف والعون الذى لا يصدر عن تفضل ولا عن

تطول ، و إنما يصدر عن محبة ومودة ، لا يكاد يشعر به من يبذله ، ولا يكاد يشعر به من يتلقاه .

وأشهد لقد كان مصطفى أصلح الأساتذة جميعاً فى كلية الآداب من هذه الناحية التى لا يكون الأستاذ أستاذاً إلا بها .

هذا بعض آثار الأناة فى الصلات بين مصطفى وبين الناس . ولكن للأناة آثاراً أخرى فى حياته الخاصة ، فى حياة مصطفى الأديب الذى لم يكن يحب التعجل بما يكتب ولا بما يقول ، و إنما كان يختار اللفظ ويلائم بينه وبين المعنى ، يبذل فى ذلك أعنف الجهد وأقساه ، يخلو إلى ذلك حين يتفرق عنه الناس أى حين يتقدم الليل . يقتطع لذلك من وقت راحته ومن الوقت الذى كان ينبغى أن يختص به نفسه وأهله . يحكم المعنى ، ويحكم اختيار اللفظ لهذا المعنى ، ولا يكفيه ذلك حتى يلائم بين اللفظ واللفظ وبين المعنى والمعنى ، وحتى يخرج القطعة الأدبية كأنها قطعة الحلى قد صيغت كأحسن ما يصاغ الحلى على أدق أصول الفن وقواعده . وما أعرف أن أديباً معاصراً أتيحت له الاجادة الفنية كما أتيحت لمصطفى ، ومصدر ذلك أنه كان يستأنى بإنتاجه ، ولا يعجل به .

وللأناة أثرها البالغ فى حياة مصطفى الأستاذ ، وفى حياة مصطفى الباحث ؛ فلم يكن يحب أن يتعجل بالدرس قبل أن يتقن إعداده كأحسن ما يكون الاتقان ، ولم يكن يحب أن يتعجل تلاميذه بالفهم عنه ، و إنما كان يأخذهم بالأناة فى القراءة وفى الفهم وفى التفسير كما كان يأخذ نفسه بها . ومن أجل هذا كان له تلاميذ بأدق معانى هذه الكلمة بين الشباب الجامعيين . وكان يستأنى ببحثه عن أى مسألة من مسائل العلم ، يستقصى ما وسعه الاستقصاء ، ويحلل ما وجد إلى التحليل سبيلا ، ويقلب النص على كل وجه من وجوه التقليب ، ولا يتعجل بعد ذلك باصدار الحكم ، و إنما يضع أمامك النصوص ويعينك على فهمها واستخراج الحقائق منها .

ومن أجل هذه الأناة كان مصطفى أديباً مقلا ، وعالماً مقلا . وربّ قليل خير من كثير .

لست أدرى أفرغ الناس من هذا الحزن العنيف الذى يصدم النفوس فيمنعها من التفكير والتأمل . وأكبر الظن أنهم لن يفرغوا من هذا الحزن العنيف على فقد مصطفى قبل وقت طويل جدّا . ولكن الشئ الذى أحققه هو أن الحزن

العنيف على فقده يمنعهم الآن من تقدير النكبة فيه . إنها نكبة فى الخلق ؛ فقد كان مصطفى آية فى الخلق الكريم . وما أقل الآيات فى الأخلاق ! إنها نكبة فى الأدب ؛ وقد كان مصطفى مؤمنا بكرامة الانتاج الأدبى . وما أقل المؤمنين بكرامة الأدب ! إنها نكبة فى العلم ، فقد كان مصطفى أعرف الناس بحقوق العلم على العلماء . وما أقل العلماء الذين يعرفون ما للعلم عليهم من حقوق ! إنها نكبة فى الاصلاح بأوسع معانى الاصلاح ؛ فقد كان مصطفى أحسن خليفة ممكن للأستاذ الإمام ، ورث عنه علمه وطموحه إلى الخير ، وأضاف إلى هذا التراث من العلم بالحضارة الحديثة شيئاً كثيراً . وأتيح له منذ تولى أمر الأزهر مالم يتح لأستاذه من السلطان . فكان خليقاً أن يمضى بالاصلاح الدينى والعلمى والخلقى فى البيئة الأزهرية إلى أبعد الغايات . وأشهد لقد كان يعمل لذلك جاداً ، ولكن فى أناة ورفق .

رحم الله مصطفى ! وأعزز علىّ بأن أملى هذا الدعاء . رحم الله مصطفى ! لقد كانت الأناة أخص صفاته ، ولكن الأناة ليست من صفات الموت . ليت الموت استأنى بمصطفى ليتم ما يسر له من الخير . ولكن الموت لايستأنى بأحد . وربما كان أبغض شئ إلى الموت أن يستأنى بالأخيار من الناس .

طه حسين